السلطان المجاهد

اطمأن السلطان صلاح الدين الى مهادنته للفرنجة ومحالفته للملك الصالح ، والى استتباب الأمن في ملكه بالشام ، فعكف في مصر على انشاء الكليات والمستشفيات والجسور والحدائق العامة وتقوية الدفاع وزيادة الاسطول ، والاشراف على بناء السور حول مدينة القاهرة وتشييد القلعة الحصينة على قمة المقطم ، وقد نقش على احد جدران هذه القلعة صورة نسر احمر على رقعة صفراء وهي صورة علمه الشخصي .

وفيما هو منصرف الى اعماله العمرانية وتصريف شؤون مملكته ، بلغته انباء مثيرة من الشام ، مفادها ان الفرنجة نقضوا الميثاق الذي عقده معهم ، فحاولوا الاستيلاء على بعلبك في غير طائل ، ثم غزوا دمشق فانتصروا على جنوده ، واسروا قائده ابن السلار ، وهزموا اخاه طوران شاه شر هزيمة . فساوره الغيظ الشديد ، وسارع بجيشه الى غزو فلسطين الجنوبية ، ولكنه ما كاد يصل الى الرملة ، حتى فاجأه ملك القدس ففرق جيشه وهزمه وكاد يأسره لولا ما ابدى من بطولة وما أظهر جنوده من اخلاص له . فقفل راجعاً الى مصر وفي نفسه الم عظيم على هذه الخسارة التي كانت أول خسارة كابدها ،

وكتب الى اخيه طوران شاه كتاباً ينبئه فيه بما حدث له فيه ويقول : « لقد اشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى ... »

كان ذلك في سنة ٥٧٣ (١١٧٧) ، فلم يقبل شهر شعبان من تلك السنة نفسها ، حتى كان السلطان صلاح الدين يسير الى دمشق على رأس جيش كبير أعده لمقاتلة الفرنجة . وكان هؤلاء قد اغتنموا فرصة قيام الخلاف بين الملك الصالح وكمشتكين ، فحاصروا حارم التي كانت اقطاعاً لهذا الوزير ، ولم يتخلوا عنها الا بعد أن اعطاهم الملك مبلغاً كبيراً من المال . ثم نشب خلاف آخر بين السلطان وابن المقدم الذي امتنع عليه في بعلبك ، وانتهز الفرنجة هذه الفرصة أيضاً وشرعوا في بناء قلعة بالقرب من سهل بانياس عند بيت النبي يعقوب في مكان يسمى مخاضة الأحزان كان حرماً بين الفرنجة والعرب . وما كاد بناء هذه القلعة يتم ، حتى ملأها الفرنجة بالمؤونة والذخيرة ، وحصنوها تحصيناً قوياً لجعلها قاعدة لغزواتهم ، ثم سار بلدوين الرابع شطر دمشق ليقاتلها ، فارسل صلاح الدين لملاقاته الامير فروخشاه ابن اخيه ، وشخص هو الى بانياس لتخريب قلعة يعقوب ، فانتصر فروخشاه على بلدوين الرابع وكاد يأسره لولا شجاعة البطل همفري الذي أسرع لانقاذه والدم ينزف من جراحه . وبقي صلاح الدين يحاصر القلعة وقتاً طويلاً ويرسل السرايا في خلال ذلك الى بيروت وصيدا وغيرهما لتغزوها وتعود اليه .

وعلى أثر الهزيمة التي مني بها بلدوين الرابع ، والغزوات التي ما يفتأ صلاح الدين يوجهها الى بلاده ، اشتدت حماسة الفرنجة

واتحد نبلاؤهم وتألبت جموعهم ، وساروا في جيش عظيم من صفد الى أعالي وادي الاردن ، وانحدروا الى مدينة مرجعيون وانزلوا بالعرب خسائر فادحة في النفوس والارزاق . ولكن صلاح الدين مالبث أن وافاهم الى هناك ، وخاض معهم معركة عظيمة تكللت بانتصاره في الثاني من المحرم سنة ٥٧٥ (١٠ حزيران سنة ١١٧٩) وأسره عدد كبير منهم ، بينهم ريمون امير طرابلس ، وهوج امير طبرية ، وبولدوين امير الرملة ، وقد افتدى هذا نفسه على ما قبل بمائتين وخمسين الف قطعة من الذهب والف من اسرى المسلمين .

وسرت حميا النصر في صلاح الدين ، فعاد الى حصار قلعة يعقوب ، فما هي الا خمسة ايام حتى استولى عليها وأسر من فيها وأمر بهدمها ، فاضطرب بذلك موقف الفرنجة . ثم اشتد هذا الموقف اضطراباً وحرجاً لما انتقل السلطان الى مهاجمة عكا بما أعدّ لهذا الهجوم من أساطيل ، بينما كانت سراياه تغزو أنحاء صفد وطبرية ، حتى لم يجد ملك القدس بداً من مصالحته ، فعقد معه هدنة لمدة سنتين شملت جميع المدن التي كانت بيد الفرنجة ما عدا طرابلس التي ظلت تقاتل العرب ردحاً من الوقت ثم صالحتهم ، وانطاكية التي حالت خلافاتها الداخلية دون قيامها بعمل عدائي ذي شأن ضد المدن المجاورة لها . ويقول الكاتبان الفرنسيان الاخوان ميشو دأن صلاح الدين كان اميناً للعهد الذي قطعه على نفسه في الهدنة التي عقدها مع ملك القدس ، كما كان طول حياته أميناً لعهوده ومعاهداته ، ولكن رينو دي شاتيون (ارناط) صاحب الكرك ، قد خالف شروط تلك الهدنة ، باعتدائه على قافلة تجارية مرت بالقرب من بلاده وهي

آمنة مطمئنة ، فأسر رجالها وسبى نساءها واستولى على أرزاقهـا . فكان جواب صلاح الدين على ذلك أنه استولى في ثغر دمياط على مركب كان يقل بعض السياح الاوروبيين .

وقد جرى امراء الجزيرة وما وراءها على غرار ملك القدس ، فعقدوا مع صلاح الدين في شهر جمادى الاولى سنة ٥٧٦ (تشرين الاول سنة ١١٨٠)، بعد فتن ومعارك لا اهمية كبرى لها ، معاهدة لمدة سنتين ،وقعها امراء الموصل واربل و كيوه وماردين وقونيـة وملك ارمينية أيضاً ، وتعهّدوا فيها بان لا يشهروا خلال تلك المدة على السلطان سيفاً . فاطمأن صلاح الدين على بلاد الشام وعاد الى مصر للنظر في احوال الاسكندرية واليمن بعد وفاة اخيه طوران شاه الذي كان اميراً عليها ، ومواصلة اعماله العمرانية وانشاءاتـه العسكرية .

على ان صلاح الدين ما لبث ان ندم على تغيبه عن بلاد الشام ، اذ ما كاد يغادرها حتى توفي سيف الدين غازي امير الموصل ، وترك ملكه لاخيه عز الدين ارسلان بن مسعود . ثم مات الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين في ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ (٤ كانون الاول الاول سنة ١١٨١) موصياً بملكه لابن عمه عز الدين هذا . وكان صلاح الدين يعدّ نفسه الوارث الشرعي للملك الصالح ، فرأى ان تغيبه عن سورية في تلك الفترة قد ضيع منه فرصة مؤاتية للاستيلاء على حلب ، وأوجد مزاحماً قوياً له هو عز الدين ارسلان بن مسعود . ثم عزّاه بعض الشيء ان هذا المزاحم الجديد ، ما كاد يستقر في حلب حتى كتب اليه اخوه عماد الدين امير سنجار ، في ان يستبدل

حلب بسنجار ، فأجابه الى طلبه وعاد الى الموصل ، واقبل عماد الدين الى حلب ، وهو اهون شأناً من اخيه وأقل قوة .

ومن ثم كانت حياة صلاح الدين بعد عودته الى سورية في صفر سنة ٥٧٨ (حزيران سنة ١١٨٢) حياة نضال متوزع بين امراء الفرنجة وعز الدين مسعود الذي لم يبق من امراء بلاد المسلمين من ينافسه غيره ، اذ ما كاد ينقضي اجل المعاهدة المارة الذكر حتى دخل في طاعته امراء حران وكيوه والرها (اورفا) وسروج والرقة وقرقيسيه ونصيبين . فبينما نراه يقاتل الفرنجة في طبرية وبيسان ثم يحاصر بيروت براً بعد ان حاصرها بحراً ، اذا به يتجه نحو الشرق فيحاصر الموصل فتمتنع عليه فيغادرها بعد شهرين ليهاجم سنجار ويستولي عليها ، ثم ما يلبث ان يحارب عماد الدين امير حلب وحليف الفرنجه ويضطره الى طلب الصلح على ان تعاد اليه ولاية سنجار مقابل الدخول في طاعة السلطان ، فيقبل صلاح الدين ذلك ويدخل حلب في ١٧ صفر سنة ٥٧٩ (١١حزيران سنة ١١٨٣ فيلاقيه اهلها باحتفال وابتهاج عظيمين . ويروى انه قد بلغته وفاة اخيه تاج الملوك بوري اثناء دخوله حلب ، فتألم لذلك ألماً شديداً ولكنه انطوى على المه وأسرّ الخبر في نفسه كي لا يفسد على جنده سرورهم بالانتصار الذي احرزوه .

وما عتم هذا الانتصار ان عقبه انتصار آخر ، إذ دخل عزالدين مسعود في شهر ذي القعدة سنة ٥٨١ (شباط سنة ١١٨٥) في طاعة صلاح الدين ، بعد معارك ومفاوضات كثيرة ، وتدخل الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي خلف أباه المستضيء بامر الله .

فتمت له بذلك سيادة مطلقة على جميع انحاء سورية الشرقية والجزيرة وجزء من كردستان ، تتصل بسيادته على حوض النيل وسواحل افريقية الشمالية وبلاد اليمن وعدن ، وتؤلف معها وحدة متماسكة جبــــارة .

وقد ختم صلاح الدين الأيوبي هذه الصفحة من حياته النضاليـة الشاقة ، بمعاهدة على المدنة لمدة اربع سنوات عقدها في اواخر سنة ٥٨٠ (١١٨٤) مع ملك القدس ، بعد غزوات عدة قام بها عـلى بلاد الفرنجة تركز اكثرها حول مدينة الكرك التي كانت عقبـــة كأداء في الطريق بين مصر والشام . ثم عــــاد الى دمشق قلب المملكة الكبيرة التي انشأها ، لينصرف في خلال هذه الحقبـة من السلام ، الى توطيد ملكه وتنظيم بلاده وتقوية دفاعـه استعداداً لاستكمال البناء الذي وضع اسسه الراسخة .

❁

لقد رأينــــا بلاد العرب زمن ولادة صلاح الدين سنة ٥٣٢ (١١٣٧) وقد تمزقت الى امارات عديده يتقاسمها الحكام الأقوياء وكل منهم يبغي الاستئثار بملكه ويطمع بالاستيلاء على ملك جاره. ثم رأينا هذه البلاد سنة ٥٨٠ (١١٨٤) وقد وحدها ذلك الرجل الفذ تحت سلطانه بعد نضال شاق استغرق شطراً كبيراً من حياته. وها نحن نراه الآن مستوياً على سدة ذلك الملك المنبسط من ضفاف الفرات الى حوض النيل ، ومن بلاد اليمن الى اقاصي افريقيــا الشمالية ، وهو ينهد الى الخمسين من عمره ، دون ان يفكر بالخلود الى الدعة والتفرغ للاستمتاع بخيرات هذا الملك الباذخ الذي صار

اليه ، بل هو يفكر في معارك جديدة يخوضها ومجد جديد يضيفه الى امجـــاده .

ورب قائل يقول ان صلاح الدين انما كان يعمل لنفسه ، وانه انما وحد البلاد العربية لتكون له، دون غيره، السيادة التامة عليها، ونحن لا ننكر ان في هذا القول كثيراً من الحق ، ولكننا لا نرى فيه ما يقلل من اهمية العمل الذي قام به . فصلاح الدين قد وحد بلاد العرب في وقت كانت فيه احوج ما تكون الى هذه الوحدة ، وهو قد وحدها في ظل مبادىء انسانية خيرة واخلاق كريمـــة رحيمة تنشد الحرية والحق والعدالة ، وليس في ظل الحديد والنار والارهاب الذي يلوي عنق الامة الى الوراء ويقضي على تراثهـــا الفكري ، ويخنق فيها روح التجدد والتوثب والابداع . هذا هو الحادث التاريخي العظيم الذي قام به صلاح الدين الايوبي ، وهو حادث ليس ينقص من اهميته في شيء ، كونه قد اكسب صاحبـــه مجداً شخصياً او اتفقت اهدافه مع مطامحه الشخصية . وفي اعتقادنا ان سر العظمة في حياة الابطال الكبار الذين تفخر البشرية بهم ، انما هو توفيقهم بين مطامحهم الشخصية ومطامح شعوبهم ، وليس تسخيرهم لها واستثمارهم اياها في سبيل مطامع رخيصة وغايات حقيرة واهداف تعسفية رجعية ، بحيث تمتزج تلك المطامح وتتفاعـــل وتصبح كلاً واحداً يستطيع ان يؤثر في التاريخ بتعبيد طريقـــه وتعجيل سيره نحو الاغراض الانسانية الرفيعـــة التي تتمخض بها مرحلة من مراحله او تنزع اليها امة من الامم في عصر من عصوره . وذلك هو الدور الذي قام به صلاح الدين الايوبي.

ويزيد في اهمية الوحدة التي بناها هذا الرجل الكبير ، كونها اتجهت ،منذ تم بناؤها،الى تحرير بقية البلاد العربية من حكم الفرنجة الذين كانوا يسيطرون على مدنها الساحلية . وقد ارتدت هذه المهمة التي استغرقت المرحلة الاخيرة من حياته ، وهي مرحلة قصيرة بدتها عظيمة بالأعمال التي حققها فيها ، طابعاً اسلامياً يقابل الطابع المسيحي الذي اصطبغت به الحروب الصليبية التي شنها الفرنجة على الأقطار العربية ، ولكنها تظل في حقيقتها وجوهرها مهمة تحررية وطنية وعربية ، اذ بدافع التحرر من الحكم الاجنبي ، وبدافع الغيرة الوطنية والحمية القومية ، وباسم خلافة بغداد العباسية العربية ، سارت الجيوش الجرارة تحت لواء صلاح الدين ، وأقبلت اليه الأمداد من كل صوب ، وايدته القبائل العربية في كل مكان . وليس ينقص من اهمية هذه الحقيقة ، او يطعن في جوهرها ، حتى افتراضنا ان صلاح الدين نفسه كان غريباً عنها ، وهو افتراض واهي الاسس لتعرّب صلاح الدين ونضاله الصادق في سبيل العرب والعروبة .

وقد ساعدت صلاح الدين على احراز انتصاراته مع الفرنجة عوامل عديدة ، منها اختلاف امرائهم فيما بينهم اختلافاً شديداً بعد وفاة ملكهم بلدوين الرابع ، اذ خلفه في الملك بلدوين الخامس وكان طفلاً ، فكفله ريمون امير طرابلس وهو الذي عقد الهدنة مع السلطان لمدة اربع سنوات . ولكن الموت فاجأ الملك الطفل في صيف سنة ٥٨٢ (١١٨٦) فاعتقد ريمون ان من حقه البقاء في مركز الوصاية وتعهد شؤون الحكم ، ولم تجاره سيبل ام الملك في اعتقاده ، بل

ارادت الملك لزوجها الجديد غي دي لوزينيان (جفري) وأيدتها طائفة من الامراء، فتوّج غي ملكاً على القدس، وذهب ريمون الى طبرية، وكانت قد آلت الى زوجته، مؤثراً التخلي عن امارته على العمل تحت حكم غي. فغضب هذا واعتزم مهاجمته هناك، مدعياً انه يريد محاسبته على الأموال التي جباها في عهد وصايته. وكان صلاح الدين حينئذ في بنياس فاستنجد به ريمون وحرضه على خصمه، فرفض السلطان محاربة غي احتراماً للهدنة المعقودة بينه وبين الفرنجة.

ومرت شهور والسلام مستتب في بادية الشام وعلى تخوم الدولة اللاتينية. ولكن رينو دي شاتيون امير الكرك ما لبث ان نقض المعاهدة التي أبرمتها دولته، كما نقض المعاهدة السابقة من قبل. يقول الدكتور فيليب حتي: « ولعل رينو هذا كان أشد زعماء اللاتين مغامرة، وأكثرهم تعديا ونقضاً للعهود، وأوفرهم إلماماً باللغة العربية. وحين كانت الكرك في عهدته اوقع مراراً بالقوافل الآمنة يسلبها امتعتها، بينما كان اصحابها يجتازون الطريق خلف اسوار حصنه. كل هذه الامور اتاها خروجاً على شروط العهود والمحالفة. وبلغ منه الكيد للمسلمين ان جهّز اسطولا اخذ يعيث في شواطىء الحجاز فساداً ويُنزل الأذى بمواكب الحجاج » وقد اقسم صلاح الدين ليقتلنّ هذا الرجل وينتهزها فرصة لضرب الفرنجة في الصميم. ويرى كثير من المؤرخين الغربيين ان مغامرات دوشاتيون، هي الثغرة التي سببت انهيار المملكة اللاتينية في القدس او عجّلت بانهيارها.

يوم حطين

كان نقض رينو دي شاتيون لشروط الهدنة ، واعتداؤه على القوافل التجارية والحجاج المسلمين، في سنة ٥٨٢ (١١٨٦). فلما كانت السنة التي تلتها ، وتأهب امير الكرك لاقتناص الحجاج وهم قافلون اعلن صلاح الدين الجهاد في جميع انحاء بلاده ، وعسكر في قصر السلامة بالقرب من بصرى ، وظل فيها حتى مر الحجاج بسلام . وفي تلك الفترة وافاه جيش مصر فضمه الى جيش سورية ، وسار بهما الى تل عشترة حيث اخذ يعد العدة للموقعة الكبرى الفاصلة بينه وبين الفرنجة، بينما الجيوش العربية تلتحق به من جميع انحاء مملكته. وفي يوم الخميس الموافق ١٦ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ (٢٥ حزيران سنة ١١٨٧) اخذ يستعرض هذه الجيوش اللجبة وينظمها وينفخ فيها روح الحماسة والجرأة .

وكذلك اجتمعت جيوش الفرنجة ، وتناسى امراؤهم خلافاتهم ، وارسلوا الى ريمون طائفة من اصحاب الرأي فيهم عادت به الى صفوفهم ، وعقد الملك مجلساً سأل فيه امراءه ان يرشدوه الى ما ينبغي له عمله امام استعداد صلاح الدين لمقاتلتهم . فاشار ريمون عليه ان يحشد جيشه في صفورية لانها ملائمة للعمليات الدفاعية ، فاحتشد في هذه

البلدة اثنان وعشرون الف مقاتل بين راجل وفارس .

وفي يوم السبت عبر صلاح الدين بجيشه نهر الاردن جنوبي طبرية وقد آثر هذه الناحية اعتماداً على صداقته مع ريمون ، وبات برجاله تلك الليلة عند الاقحوانة ، وارسل العيون لمعرفة مواقع العدو ، ثم سار الى تل كفرسبت جنوبي غربي طبرية محاولا الاشتباك مع الفرنجة فلم ينهضوا لملاقاته ، فترك حينئذ في ذلك المكان نخبة جيشه ، وزحف بالقسم الباقي منه الى طبرية نفسها فاستولى عليها في ٢٤ ربيع الثاني (٢ تموز) ولكن زوج ريمون امتنعت في قلعة طبرية مع اولادها وحاشيتها ، وارسلت الى الملك غي في صفورية تدعوه الى انقاذها ، فجمع هذا مجلس امرائه واستشارهم فيما يصنع ، فاشار ريمون بعدم مهاجمة العرب كي لا يتخلى الفرنجة عن مواقعهم الحصينة القريبة من مراكز المياه ، وقال ان صلاح الدين لا بد من ان يرحل عنها اذا لم تتقدم اليه الفرنجة ، وان ضياع طبرية اذا تم لا يضير المملكة اللاتينية في شيء ، فخالفه رينو دي شاتيون وغيره من الامراء . فاجاب : « ان انقاذ طبرية يهمني شخصياً اكثر من اصحاب السمو الامراء ، فهي خاضعة لسلطاني وفي داخلها امرأتي واولادي وثروتي ولكني لا ارى ما يراه الزملاء من وجوب مهاجمة العدو في طبرية ، لاننا اذ نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا في الشرك الذي نصبه صلاح الدين لنا ، وهو الاندفاع في هذه المنطقة الصحراوية القاحلة في شهر تموز . وعندي ان نترك قوى العدو وشأنها في طبرية لان سقوط هذه المدينة وقلعتها لا اهمية له من الوجهة الحربية . اما غرض السلطان من مهاجمتنا فهو استدراجنا الى الخروج من صفورية

لنهلك عطشاً وبحد السيف في الصحراء القاحلة . اما اذا لزمنا موقفنا الدفاعي الحالي فان صلاح الدين يضطر للجلاء عن طبرية فندخلها نحن حينئذ دون قتال . »

ولكن نصائح ريون الحكيمة ذهبت في الهواء وانكر زملاؤه أن يصدر عنه هذا الرأي وهو صاحب طبرية وزوجه هي التي تستغيث ، وظنوا فيه الخيانة لسابق صداقته مع السلطان . وما زالوا حتى حملوا الملك على إصدار امره للجيش بالزحف لملاقاة الاعداء.

وعلم صلاح الدين في غداة اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثاني (٣ تموز) بتحرك جيش الفرنجة صوب طبرية. قال ابن الاثير ولما قيل للسلطان ان الفرنجة قد تركوا مواقعهم في صفورية لمهاجمته هتف فرحاً: « الحمد لله ... هذا ما كنت ارجوه ! » . ومالبث ان اضرم النار في طبرية ، ورجع الى حيث ترك نخبة جنوده جنوبي غربي المدينة ، وامرهم بالاستيلاء على موارد الماء لندرته في تلك الفلاة القفر . فلما وصل الفرنجة الى ذلك الاتون الذي استدرجهم اليه بين لوبين وحطين، وقد أدركهم التعب وأجهدهم العطش، تعذّر عليهم الحصول على الماء لارواء ظمأهم ، وحملت عليهم جيوش العرب وهم على هذه الحال ، فنالت منهم منالا عظيماً ، وكان الليل قد اقبل فسارع الفرنجة الى تلال حطين وباتوا فيها على أسوأ حال . وزحف السلطان بجيشه ليلا فاحاط بتلك التلال من جميع جهاتها .

وفي فجر اليوم التالي التحم الجيشان على بعد ميلين من حطين. وكان العرب هم البادئين بالقتال ، إذ أخذوا يطلقون على العدو سهامهم فتجندل الفرسان والجياد ، حتى عمت الفوضى في صفوف

الفرنجة ، ثم انقضوا عليهم انقضاض الصخور المنحدرة من الجبال ، وهم يصيحون ويهللون ، وأخذوا يقاتلونهم وجهاً لوجه ، فالتحمت السيوف واشتبكت الرماح وتقارعت العصي ، وارتفع الصليل والصهيل والصراخ ، وصلاح الدين يكرّ تارة على هذه الجماعة ، ويغير تارة اخرى على تلك ، او يعود الى صفوف جنوده ينظمهم ويحثهم على الاقدام والاستبسال .

ولقد أبدى الفرنجة ضروباً مدهشة من الشجاعة والثبات ، ولكن الشمس كانت تعلو في كبد السماء ، ووهج الظهيرة يشتدّ في تلك الارض الرملية الخلاء ، والعرب يشعلون النار ويلقون بها عليهم فيضاعف لهيبها ودخانها من اضطرابهم وتضعضعهم ، ثم يكرون عليهم فيحاولون صدّهم مستعيدين شيئاً من عزيمتهم وإقدامهم فلا يستطيعون الى ذلك سبيلا ، حتى بلغوا أقصى درجات العياء والكلال ، ووهنت قواهم وهناً عظيماً ، فاندفعوا يريدون الوصول الى بحيرة طبرية ليرووا بمائها ظمأهم ويستعيدوا نشاطهم ، ولكن صلاح الدين اسرع فوقف امامهم كالسد المنيع مع ثلة من الفرسان . فجمدوا في اماكنهم فوق التل مترددين حائرين ، وقد احاط بهم العرب إحاطة الدائرة بقطرها ، ومليكهم غي يستثيرهم ويدعوهم الى الهجوم ، فيجيبونه بانهم يضطرمون عطشاً ولا يستطيعون الحرب مع هذه اللظى المستعرة في جوانحهم ، والشمس المتوهّجة التي تعشى لها عيونهم ، والرمال الملتهبة تحت أقدامهم . وكرت عليهم وهم في تلك الحال من الحيرة والتردد والقنوط ، فصيلة من فرسان العرب فقتلت منهم طائفة وأسرت طائفة اخرى والقى كثير منهم

obeikandl.com

اسلحتهم مستسلمين من غير قتال .

ولم يبق للفرنجة اخيراً الا امل واحد عقدوه على ريمون قائـد الفرسان ، فأمره الملك غي بالهجوم ، فانحدر هو وفرسانه يتدفقون كالسيل ، فتراجع امامهم تقي الدين ابن اخي السلطان عامـداً ، وظن اولئك انهم قد فتحوا ثغرة في صفوف العرب فاندفعوا فيها متحمسين ، واذا بتلك الثغرة قد سدّت ، وانفصلت فرقة ريمون عن الملك ، فبقي على التل وليس حوله إلا جماعـــة من الامراء والنبلاء وبضع مئات من الجنود ، وقد التفوا جميعاً حول خباء غي لحمايته ، فحملت عليهم ثلة من الفرسان العرب فردوها ، ثم كرت عليهم ثانية فردّوها مرّة اخرى . وكان صلاح الدين يراقب هذا المشهد على مقربة من التل الى جانب ابنه الافضل وهو حينذاك في سن السادسة عشرة ، فصرخ بجنوده صرخة غاضبة مثيرة ، فاذا بهم يعاودون هجومهم بحمية اكبر واندفاع أشد ، وإذا بخيمة الملك تهوي ، ويسقط جميع الامراء والنبلاء الفرنجة ، وفي طليعتهم مليكهم غي ، اسرى في يد جنود صلاح الدين . فلما رأى ريمون ، وكان قد اُخرج من المعركة وأبعده الفرسان العرب عنها ، استسلام الملك وحاشيتـــه ، اطلق لجواده العنان وظل هائماً على وجهه مع شرذمة من فرسانه حتى وصل الى صور سالماً ، فمكث فيها قليـلاً ثم غادرهـا الى طرابلس حيث مات بعد ثلاثة شهور في غمرة طاغية من الحزن واليأس ، إذ شاع بين قومه ظلماً انه قد خان رفاقــه وتخلى عنهم في وقت حاجتهم اليه .

واستقبل صلاح الدين اسراه العظام في خبائه وأكرمهم ، وكان

obeikandl.com

الملك غي متداعي القوى وقد اوشك هناك على السقوط مغشياً عليه لما ناله من الظمأ والاعياء ومرارة الاخفاق ، فأسرع اليه صلاح الدين فامسك به وأجلسه على مقعد قريب منه وقدّم اليه كأساً من الماء المثلج شرب الملك نصفه واعطى رينو دي شاتيون النصف الباقي فشربه ، فغضب صلاح الدين وقال لمترجمه : « قل للملك انه هو الذي سقاه وليس انا » اذ كان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا أكل او شرب شيئاً في بيت من اسره أمِن ، فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك غي أمن وأما رينو فلم يأمن . والتفت السلطان الى رينو وانشأ يوبخه على حنثه بقسمه وخرقه المواثيق والعهود، ثم قال له : « ترى لو ركبت انا رأسي وسلكت مسلكك ثم وقعت اسيراً في قبضتك فاي المواقف يكون موقفك مني ؟ » فاجاب رينو دي شاتيون على الفور : « اقطع رأسك دون تردد! » فانتفض السلطان وصاح به : « يا لك من وقح ! أفي مخيمي وتحت رحمتي تجيبني بهذه اللهجة ! » وطعنه بسيفه في كتفه ، وانقض عليه مرافقو السلطان فاجهزوا عليه . أما الملك غي ومن معه من النبلاء والفرسان فقد ارسلهم الى دمشق آمنين مكرّمين .

obeikandl.com